مأساة عربة (موبلا)

بقلم : الأستاذ أنيس الجشتي (فونا)
ترجمة : الأستاذ يوسف عظيم الصديقي

الغرب بكافة أجهزته الإعلامية والاجتماعية يريد أن يقنع العالم بأكمله أنه جلب رسالة المحبة ، والإخاء الكونية ، وأنها "ظاهرة من كافة مظاهر العنف التي يتحلى بها تاريخ الأقوام والملل الأخرى ، سواء كانت هذه الأقوام من العرب أو المغول أو البربر ، ولكن الكثير من الوقائع التاريخية ، التي تدور حول مأساة "الإنسانية" أمام عدوانية و وحشية الغرب ، هذه الوقائع التاريخية دست بين صفحات التاريخ ، ولا يدري الشاب المسلم الشئ الكثير عن وقائع الظلم الذي ارتكب من قبل الغرب !

فمن هذه الوقائع واقعة "موبلا" الهندية ، والتي تماثل واقعة "دانشوي" المصرية في مجريات الحكم ، وتنفيذ القضاء ، و مظاهر التعسف ، فإليكم تفاصيل و وقائع هذه المأساة .

في عام ١٩٢١م عند ما كانت كافة أرجاء شبه القارة الهندية تسمع وتلبي نداء الحركة الوطنية – و التي سميت بحركة "سوديشي" (١) – و التي هدفت إلى تخليص البلاد من قبضة الإنجليز في ذلك الوقت بذاته كانت قبيلة

(١) تزعم هذه الحركة زعماء بارزون أمثال الزعيم "غاندي". و "جواهر لال نهرو" . و "مولانا أبو الكلام آزاد" وغيرهم من الأعضاء البارزين في حزب المؤتمر الهندي آنذاك ، والذين هدفوا إلى تخليص البلاد من قبضة الإنجليز الجابرة .

مسلمة من قبائل إقليم "كيرالا" تلاقي المر والصعب في سبيل مقاومتها الحكم البريطاني .

"كيرالا" والإسلام :

ارتبط إقليم "كيرالا" بالإسلام والمسلمين عبر روابط متينة وقديمة على مر العصور ، فقد انتشر الإسلام على ربوع هذه المناطق الساحلية قبل مقدم فاتح السند محمد بن قاسم الثقفي بمدة لا تقل عن ثمانية عقود . كافة المؤرخين متفقون آكد الاتفاق أن الإسلام أخذ مكانته في ولاية "كيرالا" بسبب العلاقات التجارية التي ربطت الولاية بالتجار المسلمين . ونعد البعض من الكثير فنجد مؤرخين أمثال ابن بطوطة المغربي ، الشيخ عبد الحي الحسني (١) ، البروفيسور خليق أحمد النظامي ، المؤرخ البارع السيد سليمان الندوي ، خواجه بهاء الدين الأكرمي ، كافتهم متفقون أن السفن العربية مهدت الطريق لانتشار الإسلام في أنحاء ولاية "كيرالا" .

كون التجار مائلين إلى الطابع السلمي لذلك اعتادوا على تقديم فكرتهم – أي تبليغ ونشر دينهم – بأسلوب عملي وعلمي تاركين الأسلوب السلبي ، ولعل هذا هو السبب وراء غياب العصبية الدينية تجاه المسلمين في جنوب الهند ، و التي نلاحظ آثارها من وقت لآخر في شمال شبه القارة الهندية .

في ولاية "كيرالا" ، الطبقة التي نالت القدر الأكبر من الاحترام والتبجيل من قبل أفراد الطبقات الأخرى ، هي طبقة ناير التي تولت زمام الحكم بيدها ، استفاد أفراد طبقة ناير من خدمات أفراد المجتمع الآخرين في

(١) والد العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي (رحمه الله) ، ومؤلف "نزهة الخواطر" الموسوعة التاريخية عن أعلام المسلمين في شبه القارة الهندية .

ري وتحصيل أراضيهم الزراعية ، وبدل إقرار المجتمع الكثير من المشقة والتعب في سبيل العيش ، و لما استتبّ الأمر للنايريين أمروا الفلاحين بإخلاء الأراضي الزراعية ، وذلك من غير عوض مالي أو معنوي ، لذلك بات أفراد طبقتي ناير و نمبودري من أفراد المجتمع المتصفين بالظلم والتعسف . واستمر النزاع بين الطبقتين لعدة قرون .

في هذا الوقت الصعب حل ربيع الإسلام على هذه الأراضي القاحلة – اجتماعياً وأخلاقياً ودينياً – و دخل أفراد الطبقة السفلى – وهم أفراد الطبقة العاملة – في دين الله أفواجاً ، ورأوا ثمار المساومة والمسامحة الإسلامية أوضح من شمس الظهيرة .

قبل دخول الإسلام ، اعتادت نساء الطبقة السفلى على ارتداء زي يشبه الفوطه ، والذي يغطي أسفل البدن تاركاً الصدر مكشوفاً . والجزء الإمامي للصدر مفتوحاً .

بعد دخول الإسلام ، نالت هذه النساء المكانة الرفيعة . والوقار الأتم ، وأرغمنَ على ارتداء اللباس الكامل .

كما اعتادت الزوجة أن يكون لها عدة أزواج . وبعد وفاة الزوجة لا ينقسم الميراث في أبناء الزوجة وزوجها ، بل اعتادوا على تقسيمها بين إخواتها وأبنائها .

أخرج الإسلام هذه الطبقة من ظلمات الجاهلية ، ونال أفراد الطبقة المكانة الرفيعة ، و إشارة لذلك صاروا يضيفون كلمة : MAHA . و التي تعني صاحب الشرف و الوقار العظيمين إلى لقبهم السابق : PILLA . والذي يعني الولد ، وتنطق – على حسب اللهجة المليبارية – MAPILLS .

حتى يومنا هذا يعتبر أفراد فئة MOPILLA من أفراد الطبقة السفلى . ويقطنون في جنوب مدينة "كاليكات" على مسافة ٢٥/كلم في قرى . مثل "ملابورم" و "سركدر" .

www.nidaulhind.com

(... ص ١ : ج ٤٧/١)

... لأواصر المحبة والإخاء ، تزوج الوافدون من جزيرة العرب من ... ، وسرعان ما ظهر مجتمع جديد في حيز الوجود .

... دخولهم في الإسلام لم يتغير وضعهم المهني كثيراً ؛ فبقوا يخدمون ... حتى نايار ونمبودري ، و من حين لأخر يتلقون الأوامر الظالمة المهددة بالتخلي عن الأراضي .

حملات حيدر على العسكرية :

عند ما ظهر والد "تيبو سلطان الميسوري" : حيدر علي كمغازي ، وهو محارب عظيم في ساحات الحرب الهندية ، لجأ أبناء هذه الطبقة يطلبون النجدة ، و المساعدة منه للتخلص من عدوانية الطبقتين المسيطرة : نايار، ونمبودري .

تلبية لندائهم ، وضع حيدر علي – عام ١٧٦٥م – الخطط الحربية ، والتي هدفت إلى تلقين دروس قاسية لهؤلاء النايريين ، وتنفيذاً لذلك اختار الملك المغازي ، مدينة "منغلور" كمركزاً للسفن ، ومع مرور الوقت استطاع الملك المغوار السيطرة على "كنانور" "كاليكات" "بوناني"، حتى خاض في ظلمات بحر العرب ، وسيطر على جزيرة "مالديب" .

هذه الحملة الخاطفة للأنظار والحيرة للعقول كانت مبعث سرور وطمأنينة لمسلمي طبقة "موبلا" ، و لكنها في نفس الوقت جلبت الكثير من الأهوال والمصائب . فللسيطرة على هذه المدن الساحلية لجأ حيدر علي للمساعدة الفرنسية . وقصد إخضاع الإنجليز ، والناير معاً تحت حكمه .

ثورة واحتجاج عام ١٩٢١م :

لم يترك المتعصبون آنذاك أن تذهب الفرصة سدى لذلك أعطاؤا الحملة العسكرية الطابع الديني ، وفي عام ١٩٢١م حلت الكارثة العظمى عندما استرد النمبودريون – الطبقة الحاكمة – الأراضي من موبلايين – الطبقة العاملة – و ذلك من غير مقابل مالي – الأسلوب الذي اعتادوا عليه منذ فترة طويلة – .

احتجاجاً على ذلك أعلن الموبليون ثورة ضد أصحاب الأقطاع الغاصبين .

كون النمبودريون من أعوان وحلفاء الإنجليز ، فكان مقدار البلاء على المسلمين أعظم ، عينت الحكومة البريطانية فرقة "كوركها" (عصابات) للمراقبة على نشاطات الفلاحين المسلمين ، ورداً على ذلك تسلح الموبلايون . واستطاعوا الحفاظ على مناطقهم - الشاسعة على مسافة ٣٠٠/كلم مربع . واستخدم سلاح محلي يدعى MALLAPURAM KATHRI لإسقاط رقاب جنود الإنجليز من قبل محاربي القبيلة المتسلقين على الأشجار الباسقة ، بعد استمرار معارك حامية الوطيس لمدة تناهز شهراً كاملا منيت القبائل الإسلامية بخسارة فادحة ، وهزيمة نكراء .

بعد الانتصار الإنجليزي أعلن الإنجليز قتل أفراد القبيلة علانا و جهاراً ، وأن الحرب قُصد بها التخلص من النمبودريين و النايرين من جهة ، و من تسلط الإنجليز من جهة أخرى ، لذلك بات المسلمون هدفاً من كلتا الجهتين ، وانتهكت حرمات النساء العفيفات على مشهد من الناس . وحتى أُعتدي على الأطفال ممن لقوا نصيبهم من الإجراءات التعسفية .

كون هذه المنطقة تابعة لرئاسة مدراس البريطانية BRITISH MADRAS PRESIDENCY لذلك قبض على ١٥٠/مجاهد الذين أرسلوا إلى مدينة "مدراس" للمثول أمام قضاة المحكمة الإنجليزية بمدراس .

مأساة عربة "موبلا" :

والطريقة التي اختيرت لإرسال هؤلآء الناشدين للحق ، والإنصاف . ترق بها أقسى القلوب والأفئدة .

أُمر المجاهدون أن يدخلوا في إحدى عربات القطار التي كانت رابضة على محطة مدينة "ترور" TIRUR هذه العربة كانت مخصصة لنقل الأدوات الصحية ، مثل : البلاط والأحجار ، بعد إدخال ١٥٠/مجاهداً في

هذه العربة المصفحة بالحديد ، أغلقت أبواب العربة من الخـــارج ، و اتجـــه القطار إلى مدينة "مدراس" في رحلة تستغرق مدة لا تقل عن ثلاثة أيام . هذه العربة لم تكن صالحة لثلاثين راكباً مع أنها أقلت ثلاثة أضعاف القدر المسموح .

يمكن للقارئ الكريم تصور البلاء والمحنة التي ذاقها هؤلآء المجاهدون المائة والخمسون في طقس بالغ الحرارة ، و ظلام دامس ، وغياب أيّ نافذة لدخول الهواء ، من المستحيل الحصول على الغذاء أو الماء في هذا الوضـــع المحرج البالغ الآسي ، يمكن وصف هذه العربة بالقبر الفولادي الزاحف على مدرجات الحديد ، وفي هذا القبر كانت ١٥٠/جثة حية تتلقى أسوأ مظـــاهر العنف والعدوانية في تاريخ البشرية .

بسبب الاختناق التنفسي مع الظلام الدامس لجأ هـــؤلآء الأبريـــاء المجاهدون إلى شرب دماء وأبوال رفقائهم وزملائهم في تلك العربة .

بعد مرور ثلاثة أيام وصل القطار محطة سيلم بمـــدراس ، ونظـــراً للاختناق النفسي ، و ضيق المكان لقي خمسة وستون مجـــاهداً حتفهـــم ، و البقية الباقية كانت حالتهم العقلية والنفسية أسوء من المجانين .

مثل هؤلآء المجاهدون في مدينة "مدراس" أمـــام قضـــاة الســـلطة البريطانية . وأصدر حكم إعدام الكثـــير ، وأرســـل البـــاقون إلى جزيـــرة "كالاباني" (المنفى الأسود) .

نجد إلى يومنا هذا معالم وآثار بطولات وجولات هؤلآء المجاهدين في جزيرة "اندمان"، واللغة المليبارية . هي اللغة المستخدمة في جزيرة "اندمان".

قاد هذه الانتفاضة العسكرية – التي بقيت وقائعهـــا مجهولـــة ، في صفحات التاريخ البشري (وي ريم كَنّت كُنجو محمد حاجي) وي. رِيـــم كَنّت يشير إلى اسم العائلة أو العشيرة التي ينتمي إليها ، و كلمة كُنجو تعني – في اللغة المليبارية – الصغير .

في بعض الأحيان لا تؤدي ذاكرة الأمم والقبائل دورها المنشود . فبعد مرور أكثر من خمسين عاماً على استقلال الهند يتذكر أبناء ولاية "مدهيابراديش" قبائل (Bisra) ، و (Munda) الغير الحضارية ، وذات النظرة السطحية ، يتذكر أبناء الولاية من تلك القبائل ، وتعقد احتفالات لإحياء ذكرى هذه القبائل ، يطلب العفو مراراً وتكراراً من قبل الغرب بشأن قضية "بليك هول" البنغالية ، ومع ذلك لا يتذكر أحد حوادث ، و وقائع هذه المأساة الفظيعة من أجل الحرية .

ومن دواعي السرور والطمأنينة أن حكومة ولاية "كيرالا" قد أقرت بهذه المأساة التي كانت نتيجة جهود مخلصة تجاه التخلص من الحكم البريطاني الغاشم ، ذكر –المسئول في الحكومة البريطانية آنذاك– أن هذه الحركة الثورية إنما كانت احتجاجاً وانتقاماً من قبل الفلاحين تجاه أصحاب الإقطاع .

لعل أسماء هؤلآء المجاهدين تأخذ مكانتها اللائقة لدى عقد الاحتفالات الخمسينية لولاية "كيرالا" .

المراجع :

(١) موسوعة برتانيكا ، ط/٩ و/١٠ (٢) برتانيكا مانيكرو وميكرو ميديا . ط ١٥ .
(٣) ياد أيام –للشيخ عبد الحي الحسني .
(٤) الهند في العهد الإسلامي –للشيخ السيد الشريف عبد الحي الحسني .
(٥) العرب وديار الهند (بالأردية) –خواجه بهاء الدين الماكري .
(٦) علاقات العرب والهند (بالأردية) –السيد سليمان الندوي .
(7) LOGAN'S MANNUAL. (8) WEBSTOR'S ENCYCLOPAEDIA. (9) BRITANICA MAPS, Vol.IX Edi.
(١٠) سيرة السلطان تيبو الشهيد (بالأردية) –محمد إلياس الندوي .
(١١) آئينه حقيقت نما –للشيخ أكبر شاه خان .
(١٢) إسلامي هند كى عظمت رفته –للقاضي أطهر المباركفوري .
(١٣) أحاديث ولقاءات مع مسلمي ولاية "كيرالا" .